الخرطوم الكبرى

دراســة جغرافية للنشأة والتطور

الدكتور السيد البشرى (*)

المقـــدمة :

الخرطوم الــكبرى أو العاصمة المثلثة كما يسمونها هى العاصمة الوطنية لجمهورية السودان الديمقراطية • يتكون هذا التجمع الحضرى العملاق من مدن الخرطوم والخرطوم بحرى وأم درمان والتى تقع عند نقطة التقــاء النيل الأزرق بالأبيض عند خط ٣٦ ١٥° شمالا وخط طول ٣١ ٣٢° شرقا • ونسبة لأهمية هــذه المدن فقــد قام بعض الباحثين بدراستها فمنهم من كتب عن العاصمة السودانية فى بداية هــذا القرن ومنهم من قام بدراســتها فى الفترة الأخيرة • ونتعرض فى دراستنا للخرطوم الــكبرى للخلفية التاريخية وتكوين النواة الأولى ثم نتدرج بنمو هذه المــدن من البداية الى الوقت الحاضر • كما سنحاول جهــد طاقتنــا أن نبرز الشخصية المميزة لهذه المــدن مع الاشارة الى التطور الاقتصــادى والاجتماعى لهــذا القلب النابض لجمهورية السودان • ولــكن قبل أن نبدأ فى الدراسات التفصيلية كان لزاما علينا أن نتعرض فى شىء من الايجــاز الى بعض العــوامل التى ساعــدت على اقامة المستوطنــات عند نقطة ملتقى النيلين والتى تعرف بالمقرن • وسرعان

(*) استاذ الجغرافيا بكلية الآداب ــ جامعة الملك سعود ــ الرياض.

مايتضح لنـــا أن من أهم العوامل التى ساعدت فى جذب السكان لهذا الموقع هى أن الظروف الطبيعيـــة والبيئـــة تعتبر ملائمة للسكن وقـــد شجع على ذلك هذا الموقع المتميز عند ملتقى النيلين • وتقع العـــاصمة المثلثة فىالجزء الشمالى منحزام السودان الجغرافى أو اقليم الساڤانا الذى يمتد من الشرق الى الغرب عبر القارة الأفريقية بين خطى عرض ١١° ش و١٦° ش • ويتميز هذا الاقليم بسهوله وحشائشه • وبما أن هـــذا الاقليم اقليم نشاط وحركة دائمة فقـــد ظل موطنا للانسان منذ أقدم العصور • ونسبة لأن الخرطوم الـــكبرى تقع فى الجزء الشمالى لاقليم الساڤانا أو الجزء الجنوبى للصحراء الـــكبرى فقـــد أصـــبحت بمثابة همزة الوصل بين اقليمين متباينين مما جعل لها أهمية كبرى فى مجال التبـــادل التجارى والثقـــافى والحضـــارى بين اقليم الصحراء والبحر المتوسط من ناحيـــة وأقليم الساڤانا والاقليم الاســـتوائى من ناحية أخرى • وقد لعبت طرق المواصـــلات المتمثلة فى النيل وروافده وكذلك الطرق البرية دورا بارزا فىتدعيم موقف العاصمة اداريا وثقافيا واقتصـــاديا منذ زمن بعيـــد • وقـــد كان لموقع الخرطوم عند قمـــة مثلث الجزيرة (الأرض الواقعة بين النيل الأزرق والأبيض) ، والتى تمثل العمود الفقـــرى لاقتصـــاد السودان ، الأثر البـــالغ فى تطوير المناشط الاقتصادية والخدمات الاجتماعية بالعـــاصمة • أما من الناحية الديمغرافية فان الخرطوم الـــكبرى تقع عند ملتقى أهم محورين لتجمع السكان فى البـــلاد ألا وهمـــا ســـهول الســـودان الوسطى ومجرى النيل • وقـــد لعب النيل دورا فعـــالا وبارزا فى حيـــاة المدن الثـــلاث منذ النشأة الأولى • فبالرغم من أهميـــة النيل وروافـــده فى مجـــال الاتصال خاصـــة قبل بنـــاء الطرق والخطوط الحديدية الحديثة فقـــد كان النيل وما زال مصدرا أساسيا للميـــاه فى اقليم يتسم بالجفـــاف ودرجات الحرارة العـــالية فى أغلب فصـــول السنة كما وأن النيل كان يمثل حاجزا طبيعيـــا وواقيا لهذه المدن من غزوات الأعداء فى الماضى • وقد زادت الأهمية الاستراتيجية للخرطوم خاصة فى فترة العهد التركى

(١٨٢١ م — ١٨٨٥ م) كما سيتضح لنا فيما سيأتى ذكره فى هـذا البحث .

الخلفيـة التاريخية :

يستطيع الدارس لعاصـمة السـودان أن يلاحـظ بعض الحقب الزمنية التى تركت آثارها على هـذه المدن وأعطتها شخصيتها المميزة. وأهم هـذه الحقب فترة الحكم التركى (١٨٢١ م — ١٨٨٥ م) وفترة المهدية (١٨٨٥ م — ١٨٩٨ م) وفترة الحكم الثنـائى (١٨٩٨ م — ١٩٥٦ م) ثم فترة الاستقلال (١٩٥٦ م وما بعد) غير أننا سنتعرض لتاريخ المستوطنات البشرية التى قامت على هـذا الموقع عنـد ملتقى النيلين منذ العصر الحجرى وذلك بهدف تبيان أهمية الموقع الذى تقوم عليه الخرطوم الـكبرى .

العهد القـديم :

تشير بعض الحفريات الأثرية أن الموقع عنـد ملتقى النيلين ظل موطنا للانسان منذ عهد سحيق وقـد أثبتت الحفريات التى قام بهـا أنتونى آركل بعد الحرب العالميـة الثانية مباشرة (١٩٤٥ م) وجود مستوطنات بشرية على الموقع الحـالى للخرطوم منذ حوالى ٤٠٠٠ ق م كما عثر على نفس الموقع على بقايا مستوطنـات يرجع تاريخها الى عهد نبتة ومروى (٧٥٠ ق م — ٣٥٠ م) وكذلك العهد المسيحى (٥٤٠ م — ١٥٠٤ م) مما يدل على أن الموقع عند ملتقى النيلين كان مأهولا بالسكان فى فترات متصلة منذ الزمان القابر . كما وقد عثر على بعض الأدوات التى يرجع تاريخهـا الى العصر الحجرى فى كل من خـور أبو عنجة بالقرب من مدينة أم درمان وكذلك فى الشهينات على بعد ٥٠ كم شمال نفس المـدينة . كل هذا يشير الى أن الانسـان عرف منذ زمن بعيـد الأهمية الاستراتيجية لهذا الموقع الهام . ويمكننا القول أن الخرطوم التى نراها اليوم تقف على أرض تمتد جذورتاريخها الحضرى الى عصور

قـديمة تعود بنـا الى فترة نشأة المدينة الأولى فى التـاريخ فى كل من مصر وأرض الرافدين •

العهد المسيحى (٥٤٠ م — ١٥٠٤ م) :

ومن أهم المـدن التى شيدت على هذا الموقع فى العهد المسيحى فى حوالى القرن السادس الميـلادى هى مدينة سوبا عاصمة الاقليم الجنوبى لمملـكة النوبة المسيحية المسماة بعلوة (ALWA) • وتقع سوبا على مقربة من موقع الخرطوم الحـالى على مسافة ٢٠ كم الى الجنوب الشرقى من الضفة الشرقيـة للنيل الأزرق • ويبدو من دراسة بعض المخلفات على هـذا الموقع أن سوبا قـد بلغت شأنا عظيمـا فى فترة العهد المسيحى كمركز دينى وتعليمى وادارى وتجارى وقد انعكس ذلك جليا على مستوى العمران بهـذه المـدينة غير أن هدم أغلب المبـانى الأثرية فى فترات متتالية بغرض الاستفادة من مواد البنـاء جعل من العسير دراسة المـدينة بصورة دقيقـة فى الوقت الحاضر • ويقـال أنه عندما بدأ فى تشييد الخرطوم فى بداية العهد التركى (١٨٢١ م) أستعين بمواد البنـاء التى كانت موجودة على موقع سوبا المسيحية • وقـد أعاد التـاريخ نفسه عنـدما قام أتباع المهـدى بعـد سقوط الخرطوم (١٨٨٥ م) بتحويل مواد البناء منها لتشييد العاصمة المهدية الجـديدة بأم درمان • وكانت تحف بسـوبا مستوطنات مسيحية كثيرة خاصـة فى الجزء الشمالى من أرض الجزيرة • وقـد ظلت سـوبا عاصمة للاقليم الجنوبى لمملـكة النوبة المسيحية حتى نهـاية العهـد المسيحى فى ١٥٠٤ م حيث قامت جيوش مملـكة الفونج الاسـلامية بتدميرها تدميرا شـاملا • وبانتهـاء العهد المسيحى وتدمير سوبا بدأت الفترة الاسـلامية المتمثلة فى سلطنة الفونج (١٥٠٤ م — ١٨٢١ م) حيث تحول مركز الثقل من منطقـة ملتقى النيلين الى سنار على بعـد ٣٠٠ كم جنوب الخرطوم على النيل الأزرق •

عهد الفونج (١٥٠٤ م — ١٨٢١ م) :

وباعتبار سنار عاصمة للدولة الجديدة فقدت الخرطوم وما حولها الأهمية التى كانت تتمتع بهـا فى الماضى وقـد اختـار سلاطين الفونج قرى التى تقع شمال الخرطوم لتكون مركزا لهم فى هـذه النواحى • وقـد أدى اختيـار قرى الى تقلص بعض المستوطنـات المهمـة مثل الحلفـاية الواقعـة الى شمال الخرطوم مباشرة والتى كانت تشتهر بصناعة الغزل والنسيج قبل اسـتيلاء الفونج عليها • ويبدو واضـحا أن منطقـة الخرطوم لم تحظ بالأهميـة التى حظيت بها سنار وغيرها من المـدن ولم تلعب أى دور ذو شأن طوال فترة حكم الفونج الممتدة الى ثلاثة قرون (١٥٠٤ م — ١٨٢١ م) وكانت قـد تحولت الأنظـار من الداخل والخارج الى سنار العاصمة الجـديدة • ولـكن بالرغم من ذلك كله فقـد كانت هنـاك مجموعات من القرى ظلت قائمة على منطقة الخرطوم وما حولها •

ويمكن القول أن بذر النواة الأولى للعاصمة المثلثة بوضعها الحديث كان قـد تم قبل بداية عهـد الفونج بقليل وذلك فى حوالى ١٥٠٠ م فى جزيرة توتى الواقعـة عند ملتقى النيلين ومن ثم بدأ الانتشار من هذه النواة الىمواقع الخرطوم والخرطومبحرى وأم درمان فى القرنين السابع والثـامن عشر الميـلاديين • ومنذ نشأتهـا الأولى بدأت هذه المستوطنات تكتسب أهمية كبرى كمراكز دينيـة وادارية وتجـارية • وتجدر الاشـارة هنـا الى أن الانتشار من النواة الأولى داخل جزيرة توتى بدأ أولا فى اتجاه الخرطوم ثم بعد ذلك كان الانتشار فى اتجاه كل من الخرطوم بحرى وأم درمان • فقـد كان لاتساع رقعة الأرض الزراعية فى ناحيـة الخرطوم حافزا لقيـام المستوطنـات فيهـا فى فترة مبكرة • وعلى وجه العموم فان عهد الفونج يعد فى الواقع فترة مظلمة بالنسبة لتـاريخ المستوطنات فى منطقة الخرطوم حيث عمـد الحكام الى التقليل من أهميـة هذا الموقع والتركيز على مواقع أخرى

مثل سنار وواد مدنى وشـــندى وقـــد كانت كلها مدن ادارية وتجارية ذات شأن •

العهد التركى (١٨٢١ م ــ ١٨٨٥ م) :

وبدخول الجيوش التركية المصرية البـــلاد فى ١٨٢١ م وانهـــاء حكم الفونج عاد مركز الثقل مرة أخـــرى الى الخرطوم التى اختيرت عاصمة للبـــلاد فى حوالى ١٨٣٠ م • ويعتبر هذا التاريخ نقطة تحول كبرى بالنسبة لمـــدينة الخرطوم حيث أن قرية صـــغيرة عنـــد مقرن النيلين بدأت منذ الوهلة الأولى تتبوأ مكانها كعاصـــمة فى ظل العهـــد الجديد • وقـــد شهدت الخرطوم تطورا سريعا فور اختيـــارها عاصمة للسودان لـــكى تتمكن من القيـــام بواجباتها والتزاماتهـــا الجـــديدة خير قيـــام • ويقال أن على خورشد أغا ، حاكم السودان العام آنذاك (١٨٢٦ م ــ ١٨٣٤ م) ، كان قـــد أبدى رغبـــة أكيـــدة فى تطوير الخرطوم كعاصمة حديثـــة للسودان • وقد كان لخورشيد الفضل الأكبر فى تنظيم المـــدينة وتحسين مبانيها وشق الطرق • ويبدو أنه فى هذا العهد بدأت السلطات والمواطنون فى تحويل مواد البنـــاء من أطـــلال مدينـــة سوبا الى الخرطوم • وقد استمرت روح التطور والعمران التى بدأها خورشيد فى فترات تالية مما ساعد العاصمة النـــاشئة من تبوء المـــكانة اللائقـــة بهـــا فى المجلات الادارية والتجارية • وقـــد كان لتركيز الخـــدمات وفتح مجالات العمل فى دواوين الحكومة الأثر البالغ فى جذب أعداد كبيرة من السكان من المنـــاطق المجاورة للخرطوم • فقد انخرط كثير من المواطنين فى السلك الادارى وقوات الأمن وكذلك المرافق الأخرى • وقـــد أدت الهجرات من الأقاليم المختلفة الى الخرطوم الى زيادة مستمرة فى سكان المـــدينة حتى أصبح حجم السكان فى ١٨٤٠م حوالى ٣٠٫٠٠٠ نسمة وقـــد صارت الخرطوم مركزا تجـــاريا مرموقا فى حوالى النصف الأول من القرن التـــاسع عشر الميـــلادى مما لفت

نظر كثير من الرحالة الأوربيين مثل جون بزرك (١٨٤٦ م) وجورج ميلى (١٨٥٠ م)وجوزيف شورى (١٨٥١ م) وجعلهم يشيدون بالنشاط التجارى للمدينة • وكانت قد تمت فى هذه الفترة تشييدات أغلب المبانى الحكومية الهامة مما أعطى المدينة طابعا حضريا بارزا • وقد ركزت السلطات التركية الحاكمة الاهتمام كله على مدينة الخرطوم دون غيرها لكونها مركز الحكم • وكان من جراء ذلك أن استمرت كل من الخرطوم بحرى وأم درمان كقريتين صغيرتين الى ذلك التاريخ • وقبل سقوط مدينة الخرطوم فى يد القوات المهدية فى نهاية عام ١٨٨٤ م شهدت العاصمة تقلصا فى أعداد سكانها حتى وصل العدد الى ١٤٫٠٠٠ نسمة أى أن السكان تناقصوا بأكثر من النصف نتيجة لظروف الحرب • وقد سقطت مدينة الخرطوم فى أيدى المهدى وأتباعه فى ٢٦ يناير ١٨٨٥ م • وبنفس الطريقة التى كانت سائدة ابان العهد التركى فقد كان التركيز فى الفترة المهدية (١٨٨٥ م — ١٨٩٨ م) منصبا على مدينة أم درمان دون غيرها بعد أن أختيرت عاصمة للبلاد فى ظل الحكم الوطنى •

فترة المهدية (١٨٨٥ م — ١٨٩٨ م) :

وبالرغم من أن المهدى اتخذ من أم درمان عاصمة لحكمه الا أنه لم يقم بهدم المبانى بمدينة الخرطوم التى اتخذها بعض أقاربه من الأشراف مقرا لهم • ولكن المهدى لم يعمر أكثر من خمسة شهور بعد سقوط الخرطوم وانتقل الى رحمة ربه فى ٢٢ يونيو ١٨٨٥ م • وقد خلفه فى الحكم الخليفة عبد الله بن محمد المعروف بالتعايشى نسبة الى قبيلة التعايشة فى غرب السودان • ونتيجة لبعض الخلافات التى كانت قائمة بين الخليفة عبد الله وأقارب المهدى من الأشراف ونسبة لأن الخليفة أراد أن يضع كل معارضيه تحت الرقابة المشددة على مقربة منه فى أم درمان فقد أصدر أوامره باخلاء مدينة الخرطوم وهدم مبانيها فى أغسطس ١٨٨٦ م • وقد ظلت الخرطوم خاوية على

عروشها طوال فترة حكم الخليفة عبد الله التعايشى (١٨٨٥ م — ١٨٩٨ م) فيما عدا بعض الحدائق والمبانى الدينية والميناء النهرى. وبما أن الخليفة لم يكن يفكر فى الفتوحات الخارجية • كما كان يفعل الامام المهدى ، فقد فضل أن يثبت قواعد حكمه فى مدينة أم درمان • وكما فعل الأتراك فى نقل مواد البناء من سوبا الى الخرطوم قام أتباع المهدى من الأنصار بجلب مواد البناء من الخرطوم لبناء العاصمة المهدية الجديدة • وقد حلت المبانى الثابتة محل المبانى المؤقتة وبحلول عام ١٨٨٨ م بدأت المدينة المهدية تتخذ شكلا ثابتا يدل على الاستقرار • فبينما ظلت الخرطوم خاوية طوال فترة الحكم المهدى تبوأت مدينة أم درمان مكانة مرموقة بين مدن القارة الأفريقية وأصبحت العاصمة الوطنية للسودان المستقل فى نفس الفترة التى بدأت تنقض فيها قوى الاستعمار الأوربى على القارة بعد مؤتمر برلين الشهير (١٨٨٥م) • وقد بدأ تاريخ أمدرمان الحضرى ببداية العهد المهدى وسقوط الخرطوم حيث نمت أم درمان من قرية صغيرة لايتعدى سكان ٢٠٠ نسمة فى ١٨٨٤ م الى مدينة كبيرة يسكنها حوالى ١٥٠٫٠٠٠ نسمة فى حوالى ١٨٨٦ م • فقد كان السبب فى هذا النمو الهائل أن أعدادا كبيرة من أسر الجنود والمحاربين لحقت بهم فى العاصمة الجديدة بعد سقوط الخرطوم كما كان لاخلاء مدينة الخرطوم وتحول السكان لمدينة أم درمان دورا هاما فى تضخم سكان العاصمة المهدية • ومن السمات المميزة لمدينة أم درمان اكتظاظ سكانها وكثافة مبانيها وضيق طرقاتها الشىء الذى ظل ملازما لها الى يومنا هذا • وقد كان الكثافات السكانية العالية وسوء الخدمات الصحية الأثر الأكبر فى انتشار بعض الأمراض والأوبئة مثل الكوليرا والتيفوس والتى كانت تفتك بحياة كثير من السكان • ومن المظاهر الديمغرافية للعاصمة المهدية وجود حواجز قبلية ودينية حادة تفصل بين مجتمع وآخر داخل المدينة الواحدة • فقد خصصت أحياء بعينها لمجموعات الأقباط واليهود وغيرها من المجموعات القبلية •

وقد ظلت أم درمان المدينة الرائدة دون منازع فى الفترة المهدية الى أن دخلت الجيوش الاستعمارية البلاد تحت قيادة لورد كتشنر فى ٤ سبتمبر ١٨٩٨ م حيث هزم الخليفة وبمعيته ٥٠٫٠٠٠ من الجنود أمام الغزو الأجنبى • وأخيرا انتصرت الأسلحة النارية الحديثة على السلاح الأبيض التقليدى فى معركة أم درمان الشهيرة حيث صرع أكثر من ١٠٫٠٠٠ جندى من الأنصار فى ميدان القتال • وبانتهاء المعركة فر كثير من المحاربين فى أنحاء السودان حتى أن عدد سكان المدينة تقلص الى حوالى ٦٠٫٠٠٠ نسمة أى الى مايقارب الثلث • وقد ظلت أم درمان المركز الذى يدار منه حكم البلاد لبضعة أعوام الى أن تم بناء مدينة الخرطوم على أحدث طراز وببداية عهد الحكم الثنائى بدأت حقبة جديدة أخرى من تاريخ العاصمة (١٨٩٨ م — ١٩٥٦ م) •

فترة الحكم الثنائى (١٨٩٨ م — ١٩٥٦ م) :

وبعد أن ثبت النظام الجديد أقدامه فى البلاد اتخذ من الخرطوم عاصمة له وقد ركزت السلطات كل مجهوداتها فى مدينة الخرطوم من حيث تطوير الخدمات والتخطيط والتشييد وأهملت كل من مدينتى الخرطوم بحرى وأم درمان• وقد ظلت الحال كذلك حتى عهد الاستقلال• وأول شىء قام به اللورد هيربرت كتشنر بعد توليه السلطة فى ٤ سبتمبر ١٨٩٨ م هو البدء فورا فى بناء مدينة الخرطوم على نمط بناء المدن الأوربية • وقد ساعده فى وضع خطة متكاملة خلو الموقع من المبانى التى عادة تقف فى طريق تنفيذ الخطة • وقد عمد لورد كتشنر فى خطته الى اضافة طرق قطرية (diagonals) على الشبكة الأساسية (grid) مما جعل المظهر العام فى بعض أنحاء الخرطوم القديمة شبيها بالعلم البريطانى • وقد كان الهدف من ادخال الطرق المائلة على الخطة عسكريا اذ ظن لورد كتشنر أنه يمكن السيطرة على أجزاء كبيرة من المدينة بوضع جنود على بعض النقاط

الاستراتيجية عند ملتقى الطرق فى حالة نشوب القلاقل • وبدأت حركة البنـــاء والعمران على أشـــدها فى مدينـــة الخرطوم منذ أن استولت الجيوش المصرية البريطانيـــة على السلطة فى البـــلاد حتى أن معظم المبـــانى الحكومية تم تشييدها فى عام ١٩٠٤ م • وبحلول عام ١٩١٣م وصل عـــدد ســـكان المـــدينة التى ظلت خاوية لمـــدة تزيد عن الاثنى عشر عاما الى ٢٥٫٠٠٠ نسمة يعمل الســـواد الأعظم منهم فى دواوين الحكومة ودور التعليم والأمن والبيوتات التجـــارية • وسرعان ماتنبـــه المهتمون بالشئون البلدية فى ١٩١٢ م الى ماتجره الخطة التى ابتدعها لورد كتشنر من مشكلات خاصـــة بعد دخول السيارة الى المدينة حيث أن التخطيط المتبع أدى الى تعقيـــدات كثيرة بالنسبة لحركة المرور مما اضطر السلطات الى الغاء الطرق المائلة أو المنحرفة فى الخطط الجديدة. وقد عمد المخططون منـــذ الوهلة الأولى الى تصنيف المبانى بالخرطوم الى ثلاثة درجات حسب مساحة المبنى ونوع مواد البنـــاء • واستنادا الى هذه التصنيفات فقد قسمت المدينة الى ثلاثة مناطق تحمل الدرجات الأولى والثانية والثالثة • ومما هو واضح فان حالة السكن ومستواه تعكس الحالة الاقتصادية والاجتماعية للسكان وقد ظلت هذه التقسيمات هى الطابع المميز لمدن السودان جميعا الى اليوم •

ومنذ بداية الحكم الثنـــائى كان أغلب المواطنين يسكنون فى مدينة أم درمان وأجزاء من الخرطوم بحرى الا أن الخرطوم ظلت مختصرة على الحكام وبعض الجاليـــات الأجنبية غير أن بعض الأسر السودانية كانت تسكن فى أطراف المـــدينة الى جهة الجنوب من الخط الحـــديدى فيما يسمى بالديوم (نوع من السكن المنحط) • وظل الخط الحديدى يشكل الحـــد الجنوبى لمـــدينة الخرطوم حتى ١٩٤٥ م حيث بدأت المبـــانى تتدفق الى جنوب الخط حيث تقع معظم المـــدينة الحاليـــة • وبرزت المـــدينة كأهم مركز ادارى وتعليمى وتجـــارى فى البـــلاد وقد أصبح التركيز بصـــورة أكبر فى ظل الحكم الوطنى ابتـــداء من ١٩٥٦ م مما جعل العاصمة تنمو بدرجـــة كبيرة خاصـــة بعد التوسع الذى طرأ على الخـــدمات والصـــناعة والتجارة والمواصلات • وقد أدى التركيز الهائل

للمناشط المختلفة الى هجرة الريفيين الى العاصمة بأعداد كبيرة • وكان من جراء هذه الهجرات بالاضافة الى الزيادة الطبيعية أن زاد سكان مدينة الخرطوم من ٩٣ر٠٠٠ نسمة فى ١٩٥٦ م عندما أقيم التعداد الأول للسكان الى ٣٥٠ر٠٠٠ نسمة فى ١٩٧٣ م وهو موعد التعداد الثانى للسكان مسجلة بذلك زيادة قدرها ٢٦٥٪ فى فترة السبعة عشر عاما •

أما الأوضاع بالنسبة لمدينة أم درمان فكانت تتميز بالتذبذب خاصة فى السنين الأولى للحكم الثنائى حيث شهدت المدينة تناقصا فى أعداد السكان نتيجة للهجرة الى خارجها بسبب الهزيمة التى منيت بها الجيوش المهدية • فكان أن تناقص سكان المدينة من ١٥٠ر٠٠٠ نسمة فى عام ١٨٨٦ م الى ٦٠ر٠٠٠ نسمة فى عام ١٨٩٨ م أى بما يعادل ثلثى السكان • ولم تصل المدينة الى حجم سكانها فى فترة المهدية الا فى عام ١٩٦٥ م • وعلى وجه العموم فقد زاد تعداد سكان المدينة من ١١٣ر٠٠٠ نسمة فى ١٩٥٦ م الى ٣٠٠ر٠٠٠ نسمة فى ١٩٧٣ م أى بزيادة قدرها ١٦٥٪ • أما مدينة الخرطوم بحرى والتى أصبحت موطنا للصناعات بالسودان فقد زاد عدد سكانها من ٢٩ر٠٠٠ نسمة فى ١٩٥٦ م الى ١٥٠ر٠٠٠ نسمة فى ١٩٧٣ م أى بزيادة قدرها ٢٨٥٪ خلال نفس الفترة • ومما هو واضح فان الزيادة فى كل من الخرطوم بحرى والخرطوم تفوق بكثير الزيادة فى مدينة أم درمان التى لم تحظ بنفس القدر من المشروعات الانتاجية خاصة فى مجال الصناعة والخدمات • وبصورة عامة فان سكان العاصمة المثلثة البالغ عددهم ٨٠٠ر٠٠٠ نسمة حسب تعداد السكان الثانى فى ١٩٧٣م كانوا يشكلون ٤٠٪ من مجوع سكان الحضر فى السودان وهذا مايؤكد على أهمية هذه المدن داخل البلاد • وتشير بعض التقديرات الحالية أنه بحلول عام ١٩٨٠ م قد يزيد مجموع سكان العاصمة عن ١ر٥ مليون نسمة (شكل ١) أى أن الزيادة بالمثل فى غضون سبعة سنوات منذ التعداد الثانى فى ١٩٧٣ م وهذه زيادة عظيمة •

السـكان :

اذا نظرنا فى احصاءات السكان بالعاصمة نجد أن سكان هـذه المـدن قـد تضاعفوا ٣٠ مرة فى فترة الثمانين عاما المـاضية وهـذه زيادة هائلة حسب المعـايير المتعارفة • ويبدو أن الجزء الأكبر من هذه الزيادة ناجم عن الهجرة الى هـذه المـدن • وقد ساعد نظام الحكم المركزى فى تركيز الخـدمات الاجتماعية والمنـاشط الاقتصـادية فى العاصمة مما ترتب عليه هجرة الريفيين الى المـدن بأعداد كبيرة خاصة أن أقاليم السـودان المختلفـة تعـانى من التخلف وسـوء الأحوال الاقتصـادية والاجتماعية • وتقـدر نسـبة نمو السـكان بالعاصمة بحوالى ١٠٪ تشكل الزيادة الطبيعيـة منها حوالى ٢٪ والزيادة غير الطبيعيـة ٨٪ • وتعـد نسبة النمو فى كل من الخرطوم والخرطوم بحرى أعلى من النسبة فى أم درمان •

أما الهجرة بأعـداد كبيرة فـكان لها الأثر الأكبر فى تركيبـات السكان النوعية والعمرية • وبما أن الذين يشـتركون فى الهجرة من الأرياف الى هذه المـدن هم الذكور فى سن الفتوة والشباب فقد أدت هذه الظاهرة الى تغييرات ديمغرافية عظيمـة • وحسبما ورد فى تعداد السكان الثـانى فى ١٩٧٣ م فقد كانت نسبة الرجال للنساء عالية فى كل من المـدن الثلاث • فهى فى الخرطوم بحرى تساوى ١٣٩ رجل لكل ١٠٠ امرأة وفى الخرطوم ١٣٧ : ١٠٠ وفى أم درمان ١١٩ : ١٠٠ • وقـد أوردت الاحصاءات فى ١٩٧٣ م أن نسبة الأطفال دون الخامسة عشر هى حوالى ٤٠٪ من مجموع السكان وتعتبر هذه النسبة عالية جدا وكذلك تـكون نسبة الاعتماد فى المجموعة السكانية عالية (شكل ٢)•

أما فيما يتعلق بالـكثافات السكانية فهنـاك بعض التبـاين ليس فقط بين كل مدينـة وأخرى بل أيضـا بين أجزاء المـدينة الواحدة • وقـد كانت الفوارق فى الـكثافة السكانية كبيرة فى مدينة الخرطوم ذلك لتعدد الطبقـات الاجتماعية واختلاف الأحوال الاقتصادية • لهذا

كانت الكثافة السكانية بهذه المدينة تتراوح بين أقل من ٥٠٠ نسمة لكم٢ فى مناطق السكن الراقية الى ٢٧٫٠٠٠ نسمة لكم٢ فى مناطق السكن الشعبية • أما اذا مانظرنا الى متوسط الكثافة داخل المدن الثلاث نجد أن أعلى متوسط لها فى مدينة أمدرمان وهو ١١٫٠٠٠ نسمة لكم٢ تليها الخرطوم ٦٫٥٠٠ نسمة لكم٢ ثم الخرطوم بحرى ٥٫٠٠٠ نسمة لكم٢ • واذا ما أوضحنا حقيقة هى أن مدن السودان بما فى ذلك العاصمة تتكون أغلب مبانيها من طابق واحد وأن مساحات من هذه المدن تغطيها الساحات والطرق والمرافق العامة فان هذه الأرقام تدل على اكتظاظ سكانى خاصة فى مناطق السكن الشعبى حيث تصل الكثافة الى ٣٠٫٠٠٠ نسمة لكم٢ • واذا ماحسبنا الكثافة بالنسبة للحجرة الواحدة فى أماكن السكن الحقير • كل هذا يؤكد الأزمة السكنية الطاحنة التى تعيشها العاصمة مما يتطلب مجهودات ضخمة من قبل المسئولين •

استخدام الأرض :

بما أن العاصمة المثلثة تعد أكبر تجمع حضرى فى السودان اذ يسكنها مايقرب من المليون ونصف المليون نسمة فقد أصبحت استخدامات الأرض فيها على درجة عالية من التعقيد ذلك لتعدد الوظائف التى تقوم بها هذه المدن • وقد زاد من التعقيدات والمشكلات سرعة نمو هذه المدن وتمددها الأفقى فى كل اتجاه • واذا نظرنا فى الاستخدامات الأساسية للأرض داخل العاصمة نجدها تنصب فى الاستخدامات الادارية والتجارية والصناعية والسكنية بالاضافة الى الأرض المستغلة فى تقديم الخدمات الاجتماعية الأخرى • وتتركز الاستخدامات الادارية أو الحكومية بصورة خاصة فى مدينة الخرطوم حيث تغطى كل الأماكن الواقعة على ضفة النيل الأزرق ونتيجة للتوسع الذى طرأ على الخدمات الحكومية بعد الاستقلال فقد تم تحويل كثير من المبانى السكنية الى مبانى حكومية من مصالح

ووزارات ومرافق عامة • أما الأراضى المستغلة فى الخدمات الادارية فى كل من مدينتى الخرطوم بحرى وأم درمان فهى صغيرة بالمقارنة لتلك التى بالخرطوم •

وتشغل المناطق التجارية داخل العاصمة مساحات كبيرة تصل الى ضعف الأرض المستغلة فى الخدمات الحكومية هذا لكون هذه المدن تحتوى على دور الأعمال والبيوتات التجارية التى تقوم بعملية التوزيع فى باقى أجزاء البلاد • وتشغل الأسواق مناطق الوسط من هذه المدن بالقرب من أحياء السكن القديمة •

ومن حسن الطالع أن بدأت الصناعة مؤخرا بعد الحرب العالمية الثانية مما جعل قوانين التخطيط تحدد أماكن السكن • ولكن نسبة لأن أكثر من ٧٠٪ من الصناعات بالسودان تقوم بالعاصمة وكذلك نتيجة لتمدد العمران فقد أصبحت المناطق الصناعية الآن محاطة من كل جانب بالمناطق السكنية • وتغطى الأماكن الصناعية حوالى ١٢ كم٢ من أراضى العاصمة وهذا مايساوى ثلاثة أضعاف الأراضى المخصصة لصالح الحكومة والتجارة •

أما الأراضى المستخدمة فى السكن فهى تغطى مايقرب من ٨٠٪ من الأراضى داخل هذه المدن وقد كان لبناء المساكن من طابق واحد الأثر فى تمدد المدن الأفقى الى مسافات طويلة مما يشكل عقبات كثيرة فى تمديد الخدمات بأنواعها المختلفة وكذلك يؤدى الى زيادة التكلفة بالنسبة لتوصيل الخدمات كالماء والكهرباء والتعليم والصحة والأسواق • ومن الأسباب التى ساعدت على التمدد الأفقى للمدن كبر حجم المساحة المخصصة للمسكن الواحد اذ أنها تتراوح بين ٣٠٠ مم الى أكثر من ١٠٠٠ مم • وللخروج من مشكلة التمدد والانتشار لابد من النظر فى مساحات المساكن من ناحية وكذلك تشجيع المبانى متعددة الطوابق والتى بدأت بوادرها فى أواسط هذه المدن •

ومن المشكلات التى تعانيها العاصمة عدم التوازن بين توزيع السكان وتوزيع الخدمات مما يضطر الساكنين الى قطع مسافات طويلة للحصول على الخدمات الضرورية وهذا بالطبع يعوق أداء الأفراد ويقلل من كفاءة المدينة وفعاليتها •

ومن الملاحظ فى مدن السودان عامة والعاصمة خاصة صغر المساحات المخصصة للساحات والمنتزهات والحدائق العامة بالنسبة للسكان • ومما هو واضح فان مثل هذه الميادين تعتبر ضرورية خاصة فى ظروف المناخ المدارى القارى الذى تعيشه العاصمة ، واذا مارجعنا الى الأرقام نجد أن هناك ٣ر٠ من الهكتار على هيئة ميادين عامة لكل ألف من السكان وهى نسبة صغيرة اذا ماقارناها بالمستويات العالمية •

مشكلات استخدام الأرض :

من البديهى أن تكون هناك بعض المشكلات المتعلقة بسوء استخدام الأرض فى أى مدينة ذلك لأن الاستخدامات الحالية هى وليدة تراكمات زمنية طويلة وقد لاتمثل الاستخدام الأمثل للأرض فى الوقت الحاضر • فبينما تكون بعض استخدامات الأرض منطقية فى زمانها قد لا تكون فى وقت لاحق بل قد تصبح فى بعض الحالات معوقا لنمو المدينة الطبيعى • والعاصمة السودانية مليئة ببعض أمثلة الاستخدامات التى أصبحت بالية بل أنها تقف حجر عثرة فى طريق النمو الطبيعى • ومن هذه الاستخدامات وجود مساحات كبيرة من أراضى المدن الثلاث مخصصة للثكنات العسكرية عند النقاط الاستراتيجية مثل مداخل الكبارى فى هذه المدن • فمما هو واضح فان الثكنات العسكرية مكانها الطبيعى أطراف المدن وليس داخلها لأسباب تتعلق بأمن المواطنين حالة اندلاع الصدام المسلح • كما أن الأراضى داخل المدن ذات قيمة عالية يمكن استغلالها فى مجالات اقتصادية واجتماعية يكون النفع من ورائها أعم وأشمل • كذلك أن

مطار الخرطوم أصبح الآن فى وسط المدينة ويشغل مساحة كبيرة يمكن استغلالها بصورة أفضل فى مجالات أخرى • هذا بالاضافة الى الخطورة التى يشكلها المطار لكونه يقع بالقرب من المناطق السكنية • كما أن وجود مصلحة النقل الميكانيكى ومصلحة المخازن والمهمات وكذلك الميناء النهرى فى قلب مدينة الخرطوم بحرى ليس له أى مبرر الآن خاصة وأن هذه المصالح تشغل مساحات شاسعة من الأراضى ذات الموقع الممتاز اذ أنها تطل على شاطىء النيل الأزرق • وتستطيع السلطات المسؤولة بكل سهولة أن تنقل جميع هذه الخدمات الى مواقع أخرى ملائمة خارج منطقة الوسط هذه • فيمكن نقل مصلحة النقل الميكانيكى ومصلحة المخازن الى المنطقة الصناعية• أما الميناء النهرى فيمكن نقله الى أطراف المدينة • ويبدو أن مثل هذه المواقع المطلة على النيل الأزرق يمكن الاستفادة منها فى الخدمات الادارية أو التجارية أن السكنية أو فى زيادة الميادين العامة والمتنزهات • ومما هو واضح فان سوء استخدام الأرض داخل العاصمة كان له الأثر فى تحديد اتجاهات تمدد المدن وانتشارها • فقد أدى وجود مطار الخرطوم مثلا الى الحد من تمدد المدينة فى اتجاه الشرق • ولما كان المنفذ الوحيد لتمدد المدينة هو فى اتجاه الجنوب فقد انتشر العمران فى هذا الاتجاه على مسافات طويلة مما جعل توصيل الخدمات يتم بصورة غير مرضية • أما فى مدينة أم درمان فقد تحدد انتشار العمران الى جهة الشمال والغرب خاصة وأن انجزء الجنوبى تشغله المنطقة العسكرية • وبما أن القرب من النهر يعد أمرا مفضلا فى مثل الظروف المناخية للعاصمة فقد كان التمدد الى جهة الشمال أكبر بكثير من الانتشار فى اتجاه الغرب • وفى مدينة الخرطوم بحرى كان التمدد أساسا الى جهة الشمال لأن المنطقة الصناعية وبعض المزارع تقف حاجزا منيعا فى طريق الانتشار فى هذا الاتجاه •

وبالاضـــافة الى هذه الحواجز التى هى من صنع الانسان فهنـــاك بعض الموانع الطبيعيـــة التى تقف فى سبيل نمو هذه المدن منها المنطقة الواقعة الى غرب مدينـــة الخرطوم والتى تغطيها ميـــاه فيضـــان النيل الأبيض كل عام (شكل ٢) • فمن المؤكد أن اقامة رصيف على هذا الجزء يجعل من الممكن الاستفادة من مساحات كبيرة من الأرض الآن قليـــلة الفائدة • ومما لاشك فيه أن تكلفة بنـــاء هذا الرصـــيف ستكون أقل بكثير من تكلفة توفير الخدمات على مسافات طويلة نتيجة الانتشار • وبما أن الاتصال النهرى بين مدن العاصمة يعتبر ضعيفا جدا فان النيل وروافده يشكلون حواجز طبيعيـــة تفصـــل بين هـــذه المـــدن وتحول دون التحامها •

وبالرغم من أننا يمكن أن ننظر الى المدن الثلاث كوحدة اقتصادية واجتماعية الا أن الروابط المـــكانية والوظيفيـــة داخل المدن تعد ضعيفة وغير منسجمة • وغالبا مايؤدى هذا التفكك الى كثير من المشكلات التى قـــد تقلل من أداء المدن الوظيفى مما ينعكس على الأحوال الاقتصادية والاجتماعية للسكان • ومن أهم المشكلات التى تعانى منهـــا العاصمة هى المسافات الطويلة التى تفصل بين منـــاطق السكن ومواقع العمل مما يضيع الوقت ويقلل الجهد •

اقليم المـــدينة :

تعتبر العاصمة المثلثة أهم تجمع حضرى فى البلاد من وجهة النظر الثقافيـــة والسياسية والديمغرافيـــة والاقتصـــادية • فى البؤرة التى ينطلق منها الاشعاع فى كل اتجاه • وقـــد كان لتركيز سبل الاتصـــال بأنواعها المختلفة فى العاصمة الفضل الأكبر فى تأثيرها ثقافيا وحضاريا على البلاد بصورة عامة • وبالرغم من أن سكان العاصمة يشكلون ٤٠٪ من سكان الحضر بالسودان الا أن نصيب هـــذه المدن من مجموع سكان البـــلاد يقل عن ١٠٪ • وتعد هذه النسبة صغيرة اذا ماقارناها بمستوى

تركيز الخدمات والمناشط الاقتصادية الأخرى • وتشير الاحصاءات الى أن العاصمة المثلثة تستحوذ على ٢٠٪ من عدد الأسرة فى كل مستشفيات السودان ، ٥٠٪ من الأطباء ، ٨٠٪ من الشركات والبيوتات التجارية ، ٨٠٪ من أعمال البنوك ، أكثر من ٧٠٪ من المؤسسات الصناعية ، ٦٥٪ من العمالة فى الصناعة ، ٧٥٪ من الاستهلاك الكلى للطاقة بالبلاد • وتعد العاصمة أكبر سوق للتجارة بالسودان وبها الخدمات الطبية المتخصصة والمعاهد العليا والجامعات • وتقوم الخرطوم الكبرى بتقديم خدمات كثيرة متنوعة ليس لسكانها فقط ولكن لسكان الأقاليم التى حولها وكذلك لسكان البلاد قاطبة • وقد أدى هذا التركيز الهائل للخدمات الى رفع كفاءة سبل المواصلات البرية والنهرية والجوية • كما وأن سبل الاتصال الأخرى من هاتف ومذياع وتلفاز قد ساعدت كثيرا فى الدور الطليعى الذى تقوم به عاصمة البلاد •

وبعد دراسة دقيقة لأقليم العاصمة اتضح لنا أن هناك اقليمين أساسيين • يشمل الأول المناطق المتاخية والتى تقع على بعد ٧٠ كيلومترا من المدن الثلاث وهو أقليم يتفاعل بصورة مباشرة ونشطة مع هذه المدن • تكثر فى هذا الاقليم الحركة اليومية جيئة وذهابا بقصد الدراسة أو العلاج أو التجارة • ويعتمد هذا الاقليم اعتمادا كليا على العاصمة فى الحصول على الخدمات وكذلك فى بيع المنتجات الزراعية المختلفة • فهو المصدر الأساسى للفاكهة والخضر ومنتجات الألبان والدواجن والأسماك التى تغذى العاصمة كما أن كثيرا من سكان هذا الاقليم يعملون داخل المدن • أما الاقليم الثانى فيشمل باقى أجزاء السودان التى تمد العاصمة بالغذاء والخامات الصناعية والأيدى

العـــاملة • وتقدم العاصمة الخـــدمات الحكومية والتعليمية والصحية المتخصصة لجميع سكان البلاد • وقد أوضحت الدراسة أن العلاقة بين العاصمة والأقاليم التى حولها هى علاقة ديناميكية تتغير وتتجدد حسب التغيرات التكنولوجية خاصـــة فى مجال المواصـــلات الحديثة • فكلما تحسنت سبل المواصـــلات بين العاصمة وبقيـــة الأقاليم كلما زاد تأثير العاصمة على رقعـــة أكبر من الأرض • وبما أن المدن الثلاث هى مدن السودان الرائدة فى مجالات شتى فستظل تضطلع بـــدورها الطليعى كمدن السودان الأولى فى المجالات الثقافية والسياسية والاقتصادية •

معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUTE OF ARAB RESEARCH AND STUDIES

REFERENCES :

Arkell, A. J., «Early Khartoum», **Antiquity,** vol. 21, No. 84, December (1947).

Crawford, O.G.S., **The Fung Kingdom of Sennar,** Gloucester (1951).

Edwards, F.A., «The Foundation og Khartoum», **Sudan Notes and Records,** vol. 5, Nos. 3 and 4, December (1922).

El-Bushra, El-Sayed, «The Evolution of the three Towns», **African Urban Notes,** vol. 6, No. 2, Summer (1971).

————, «The Distribution of Land Use within Major Sudanese Towns», **Adab,** Journal of the Faculty of Arts, University of Khartoum, vol. 1, (1972).

————, «Sudan's Triple Capital : Morphology and Functions», **Ekistics,** vol. 39, No. 233, April (1975).

————, «The Development of Industry in Greater Khartoum, Sudan», **The East African Georgraphical Review,** vol. 10, April (1972).

————, «The Sphere of Influence of Khartoum Conurbation, Sudan», **Erdkunde,** vol. 30, No. 4 December (1976).

————, **An Atlas of Kartoum Conurbation,** Khartoum University Press, (1976).

Hamdan, G., «Some Aspects of the Urban Georgraphy of Khartoum Complex», **Bull. De La Societe De Geographie d'Egypt, vol. 32 (1959).**

————, «The Growth and Functional Structure of Khartoum», **Geographical Review,** vol. 50, No. 1, January (1960).

MacMichael, H.A., «Old Khartoum», **Sudan Notes and Records, vol.** 6, July (1923).

McLean, W. H., «The Planning of Khartoum and Omdurman», **Town Planning Conference,** October, 1910, London, (1911).

———, «Town Planning in the Tropics with Special Reference to Khartoum City Development Plan», **Town Planning Review**, vol. 3, No. 4, January (1913).

Rehfisch, F., «A sketch of the Early History of Omdurman», **Sudan Notes and Records**, vol. 45, (1964).

Walkely, C.E.J., «The Story of Khartoum», **Sudan Notes and Records**, vol. 18, part 2, (1935).

———, «The Story of Khartoum», **Sudan Notes and Records**, vol. 19, part 1, (1936).

سكان العاصمة الثلثة
من عام (١٩٠٠ - ١٩٨٠) .

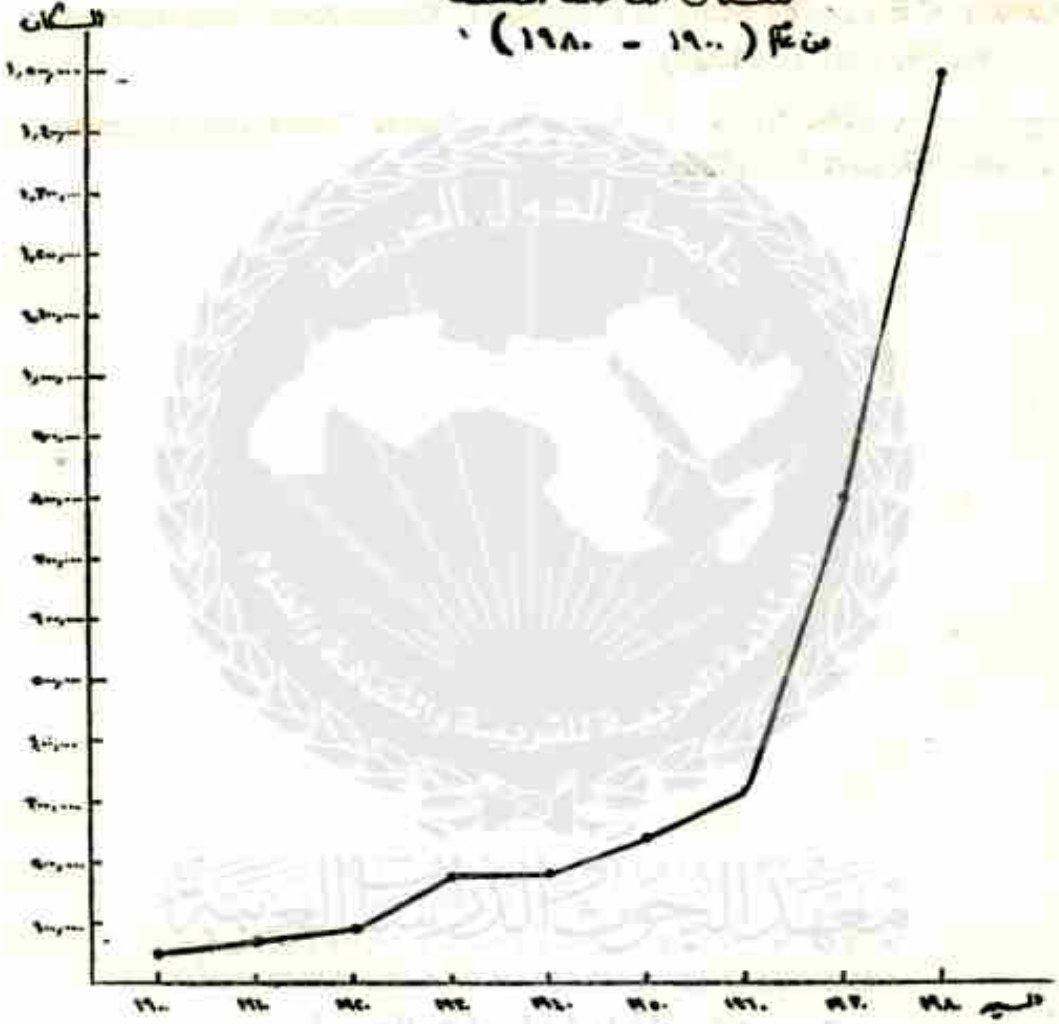

شكل (١)

أهرامات السكان بالعاصمة المثلثة (١٩٧٢)

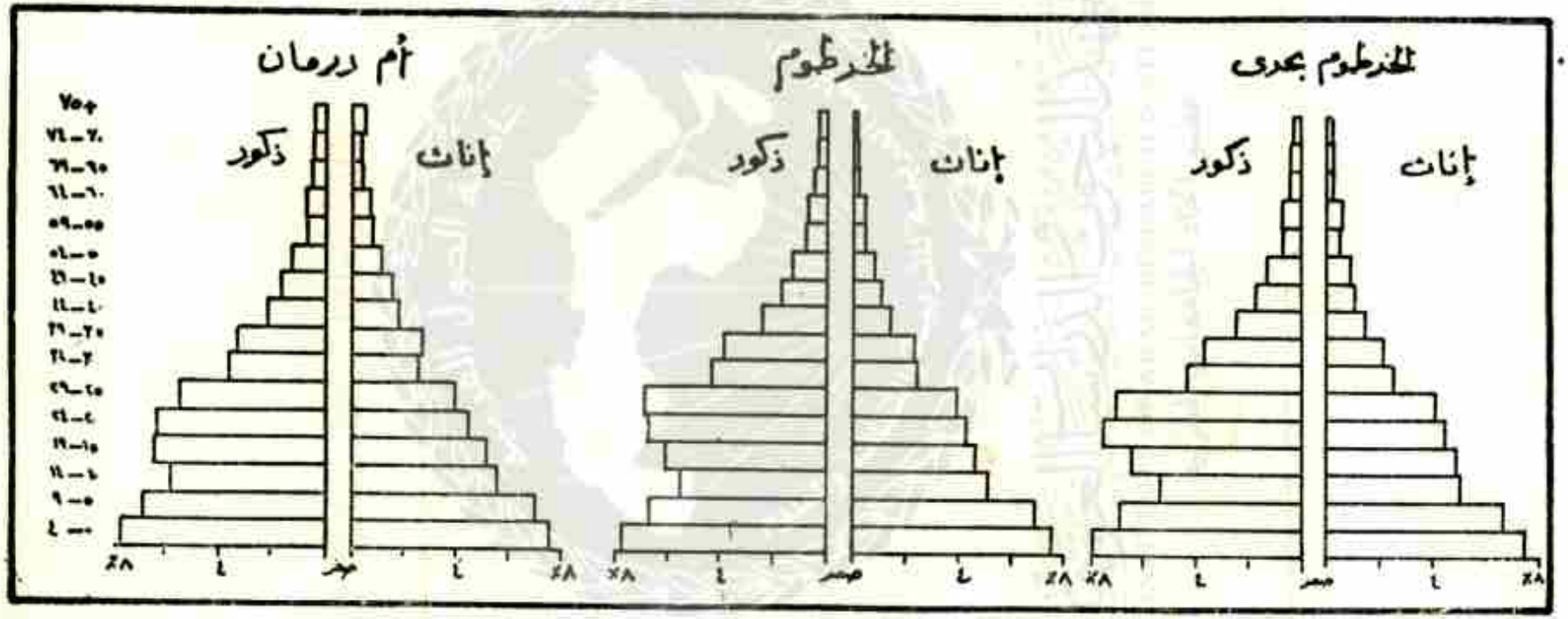

شكل (٥)

أتجاهات التمدد بالعاصمه المثلثه

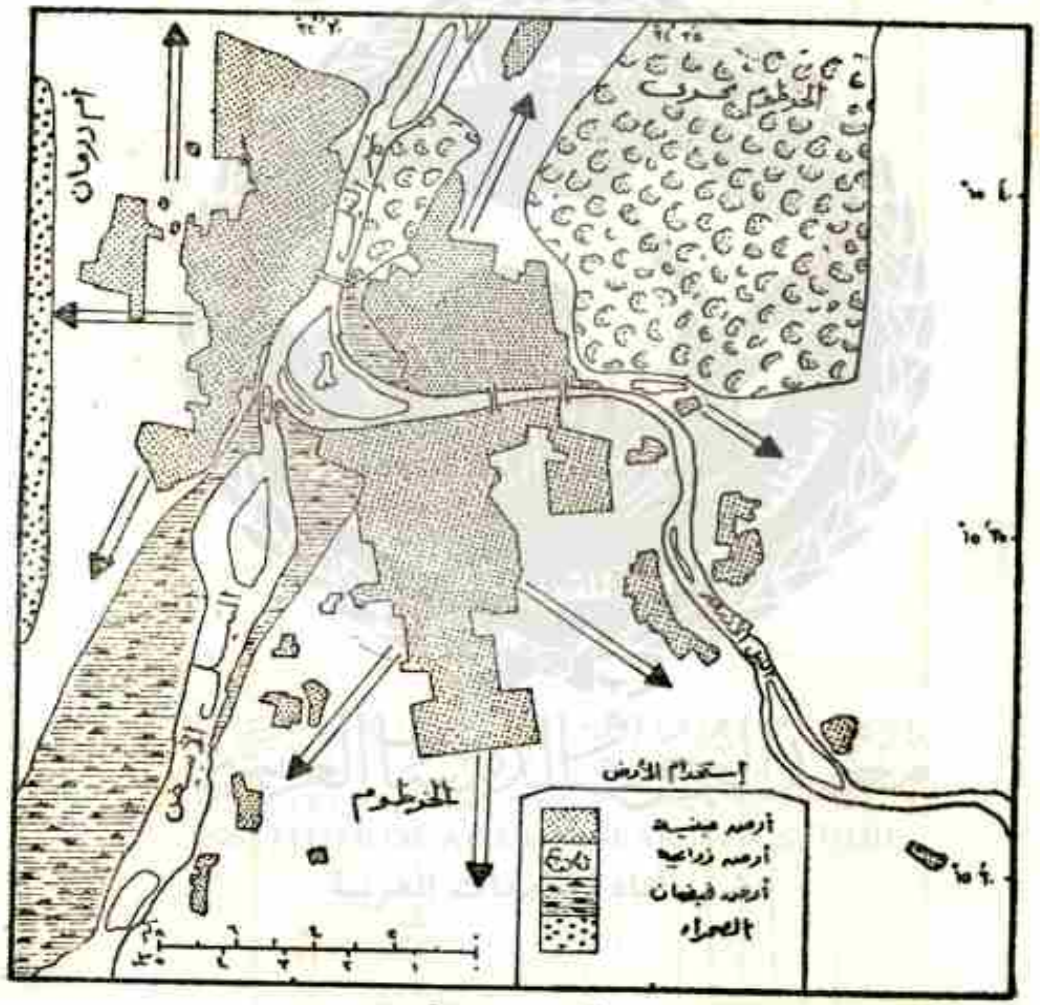

شكل (٣)